

الثقافة الشعبية بالهقار من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين

د: رمضان حينوني
المركز الجامعي لتأمnergst

الملخص

تناول هذه الدراسة رؤية بعض الرحالة الأوروبيين إلى التراث الشعبي بمنطقة الهقار، وما ميزها من عجائبها أملأها اختلاف هذا التراث عن الثقافة الأوروبية من جهة، وعن قسم مهم من عناصر الثقافة العربية التي يعيش في إطارها من جهة أخرى. وتركز الدراسة على وجهات نظر رحالتين حول الثقافة التارقية وبخاصة ما تعلق منها بالشعر والموسيقى المرتبطين بالمرأة على وجه الخصوص، يتعلق الأمر بالفرنسي لوبيلاط والإيطالي أتيليو غوديو.

تمهيد:

لكل مكان في هذه المعمورة تاريخه وتراثه وخصائصه التي تميزه، يصمد بعضها في وجه الزمن، ويصبح بعضها الآخر أثراً بعد عين، يسكن الذاكرة الشعبية، وبطون الكتب دون أن يجد في الحياة المعاصرة من يجسده أو يمارسه، لأن الحياة المعاصرة تأبى إلا أن تطبع الناس على صورة حياة معينة يعد الخارج عنها موسوماً بالتخلف أو البدائية أو ما شابه هذه الأوصاف.

وعلى الرغم من الإيمان بتغيير الأحوال وتطور الأزمنة، فإن الثقافة الشعبية تحيا في وجدان الإنسان، وترتبطه دوماً بجذوره ومضييه، فتكون مصدراً لكثير من التوجهات والسلوكيات التي يجب أن تبقى مصاحبة للمجموعة البشرية التي تنتهي إليها. ونحن نرى كم يحن المرء إلى تلك الثقافة كلما وجد لذلك مناسبة، ذلك أنها جزء منه، يحن إليها ويحييها فيفرغ عبرها شحنة من الذكريات والرؤى بحسنة حيناً وبشوق حيناً آخر.

مجلة الكلم - العدد الأول

أما نظرة الإنسان إلى ثقافة الآخر فنظرة فضول واستكشاف، تخللها غرائبية تارة وعجائبية تارة أخرى، لأن مادتها قد تختلف أو تتناقض مع مادة الثقافة الأصلية، غير أن الاحترام يظل السلوك الحضاري الذي على المرء أن يتحلى به حيال ثقافة الآخرين. وهذا ما نجده في أغلب كتابات الغربيين حول منطقة الهقار بصرف النظر عن موقفنا من بعض ما نقلوه أو كتبوه.

ولا يمكن في هذه الورقة أن نحيط بكتابات الغربيين جميعهم ممن زاروا الهقار وكتبوا عنه، لكننا نأخذ بعض نماذج، لعلمنا أن تشابها كبيرا في الرؤى قائمة بين مجموع هؤلاء، وبخاصة إذا علمنا أن أغلبهم اختاروا الإقامة بين أهالي المنطقة ومعايشة بيئتهم وتقاليدهم، فكان نقلمهم لما شاهدوه يكاد يكون متطابقا، يتعلق الأمر بكتاب (حضارات الصحراء) لأتيлиو غوديو (Attilio Gaudio، وكتاب (تاريخ تاظروك*) للوي بيلاط المعروف باسم الأخ عبد الله (Frère Abdallah).

الاكتشاف والعجبية:

ترتبط العجائبية بلحظة الاكتشاف الأولى على الأخص، قد تمتد إلى لحظات تقصير أو تطول، لكن ميلادها يتزامن ولحظة اكتشاف الشيء، ذلك المختلف الغريب الذي يصطدم بالصورة التي ثبّتها الأيام والسنون في أذهاننا، خصوصا إذا كان الإنسان يعتقد أن الكون بما تحتواه هو نموذج لما يعيشه في بيئته وبين قومه، وأن ما لديه هو ما يجب أن يكون لدى غيره من لا يشارطونه المكان والبيئة والثقافة.

والإحساس العجائي ليس غريبا عن الفكر الأوروبي في نظرته إلى العالم الأخرى التي اكتشفها، وربما كان للشعور القديم عنده بالتفوق وصناعة الأشياء دور أساس في بلورة مثل ذلك الإحساس؛ حين تحول الحياة الأوروبية إلى مقاييس أو مثال في مختلف مراحل تطورها، فيوصف الآخر بشرا أو كائنات أو شيئاً بالغريب والعجيب، ولقد كانت اكتشافات العالم القديمة خير دليل على ذلك، حيث اكتشف الأوروبي جزر المحيطات والقارات المختلفة ليجد حياة غير التي يحياها أو يتصورها، وشعوبا تختلف عنه في اللون والشكل ونمط الحياة والتفكير، فكان تعامله

مجلة الكلم - العدد الأول

مع هذه الاكتشافات متفاوتاً بين محاولة التعايش وسلوك الإبادة التي مست شعوباً بدائية كثيرة تحت أغطية عديدة.

كان هنا في عصور البحث عن النفوذ ومناطق الثروة والسيطرة، أين كانت السياسات الاستعمارية هي الدافع لتلك الأعمال القاسية، بعدها شاهدنا فترة من مراجعة العلاقات بين الشعوب، أملتها القوانين الدولية والتقدم الحاصل على مستوى حقوق الإنسان، فتحولت تلك الممارسات الشائنة لدى الأجناس المتفوقة إلى كشف علمية تحاول أن تستقرئ الأمانة والأمكانية والطبيعة والإنسان للوصول إلى فهم الطبائع والعادات وأنماط العيش عند الشعوب المختلفة، بغية الوصول إلى ما يدل على أن هذا التنوع وذاك الاختلاف هما مما يعطي للحياة البشرية جمالها وتكاملها وانسجامها.

وهكذا، توجهت جهود الرحالة والمكتشفين في العصور المتأخرة، وخصوصاً بعد استقلال أغلب الشعوب الصغيرة أو الضعيفة، إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية لدراسة طبيعة وتفاصيل الحياة المقابلة لحياة التحضر والتمدن، فنالت كثير من الشعوب حظها من الدراسة بصرف النظر عن تقييمنا لها أو نظرتنا إليها وإلى مصاديقها.

ومن هذه الشعوب التي توجهت إليها الأنطوار شعب الأهقار الذي حظي باهتمام بالغ، ترجمته عديد الكتابات التي أنجزت في الفترة الاستعمارية بأفلاط المبشرين والأباء البيض، أو بعد الاستقلال بأفلاط الرحالة والمكتشفين.

ببليوغرافيا حول الهقار:

نال الهقار شهرة عالمية بفضل عوامل عدة؛ منها طبيعته الخلابة بمرتفعاتها الصخرية ورمالها وطقسها، وم منها مكونه البشري الأمازيغي الذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ، إضافة إلى طابع البداوة الذي حافظ على كثير من السمات العريقة في مخيال وسلوك الإنسان في هذه المنطقة. لهذا نجد مجموعة من الغربيين ولوا وجوههم شطر الهقار يستنطقون تاريخه وحضارته، وينقلون ما شاهدوه وعايشوه رفقة هذا الشعب البسيط من عادات وتقالييد وأساليب حياة.

مجلة الكلم - العدد الأول

من هؤلاء مثلاً -إضافة إلى العلمين السابق ذكرهما- نجد: وأوديت برنزات (Odette Bernezat) في كتابها (رجال جبال الهقار) وهنري لوط (Henri Lhote) في عمليه: الأول موسوم بـ(طوارق الهقار)، والثاني بعنوان (الهقار: فضاء وأزمنة)، وروجيه فريسون روشن (Roger Frison-) Claude Roche في (نداء الهقار) و(خمسون عاماً في الصحراء)، وكلود بلونقرنون (François de Chasseloup) في (الهقار)، وفرانسوا دي شاسلو (François Blanguernon) في كتابه (فن الكهوف في الهقار)، ومارفال بيরتوان (Maraval Bertoin) في (مسالك الهقار)، ودوشون جيرسي (Philippe Régnier) في (المغامرة الكبرى الأخيرة للطوارق)، فيليب رينيه (Philippe duchon) في (طاغية الهقار)، وإيريك إيمانويل شmitt (Eric-Emmanuel Schmitt) في (ليله النار)، وجون كيرليف (kerlyve) في (ابن الهقار)، وغيرها.

هذه المؤلفات ليست كلها دراسات علمية أو أبحاثاً أكاديمية، بل نجد بعضها يندرج تحت أدب الرحلة أو الأدب القصصي، فهي ترتكز بالأساس على ما يلاحظه ويسجله الرحالة من خلال معايشته لشريحة معينة من هذا المجتمع، غير أن هذا النوع من التأليف كان قاعدة أساسية لإطلاق أبحاث جادة، ودراسات اجتماعية وانثropolوجية ولغوية هامة مثلما توضحه أوديت برنزات في كتابها (رجال جبال الهقار) حين تقول: "بعد الاهتمام بالأرض أصبح سكان الهقار مادة للفضول العلمي الواسع من اللغويين وعلماء الأعراق والأنثropolوجيين الذين اهتموا بالبحث عن هوية التوارق²، ولم يتركوا شيئاً جانباً، درسوا أشياء كثيرة في سبيل الوصول إلى النتيجة".

ومع علمنا أن هذه الكتابات موجهة أساساً إلى الإنسان الغربي، فإن نظرتنا إليها وتقديرنا لها يجب أن تكون في هذا الإطار، الأمر الذي يدفعنا إلى القول: إن إعابة بعض ما جاء فيها لا ينفي قيمتها البالغة، وفضلها في تعريفنا بكثير من الجوانب الغائية في تاريخنا.

العناصر الثقافية في الهقار:

المرأة ناقلة التراث:

إن المرأة في مجتمع الهقار هي حاملة التراث وناقلته، بل هي محور الحياة الاجتماعية وأسasها. ويرى قوديو أن هذه السمة أدهشت العرب لكونهم لم يتعدوا على منح تلك الحرية لنسائهم في الحياة العامة.³ ما جعل الأوروبيين ينطلقون في تفسير هذه الظاهرة من منطلق المقارنة بين المرأة التارقية والمرأة العربية. فالثانية عندهم خاضعة للتشدد الديني أو المحافظة إلى حد التقيد نتيجة لل تعاليم الإسلامية الصارمة، أما الأولى فتتمتع بقدر عالٍ من الحرية والانطلاق. وقد نقل قوديو هذه الصورة بقوله "المرأة التارقية أكثر ميلاً إلى الدلال والجمال وهي سمة متطورة جداً رغم أنها بالنسبة لأوروبي قابلة للنقاش".⁴

ويرتكز تفسير الأوروبيين لمكانة المرأة المتميزة داخل المجتمع التارقي على كونه مجتمعاً أمومياً يعترف بأولوية (البطن على الظهر)، أي أن الانساب والقرابة والجاه تكون من جهة الأم لا الأب، بينما في التعريف بالشخص فقط يتم الانساب للأب فيقال: (فلان أق فلان) أي ابنه، أو (فلانة ولت فلان) أي ابنته، ويقفون بإعجاب بعض خصائص المرأة التارقية منها ما لحظه قوديو من أن:

- رعاية الطفل وتربيته من اختصاص الأم دون الأب، لكونها أكثر تعلماً وثقافة منه.
- احتكار التارقية الكتابة بالتفيناغ والقراءة بها، في وقت يميل الرجل إلى استعمال العربية، ما يعني أن الفضل فيبقاء هذه اللغة القديمة جداً يعود إلى المرأة دون الرجل.
- إن المرأة التارقية في الحياة العامة ترك الانطباع بكونها أكثر تطوراً وذكاءً من الرجل، ما حدا بالرجل إلى تغطية الوجه في حين تسفر فيه المرأة عن وجهها.⁵

وقد نتج عن ذلك جملة من الخصائص المميزة للمرأة التارقية منها:

مجلة الكلم - العدد الأول

- الحرية التامة في اختيار زوجها، يتم ذلك عادة من خلال جلسات (تاغيلت)، وهي جلسات الشباب مع الشابات المقبولين على الزواج، ويتم فيها اختيار الزوج أو الزوجة، فهي جلسات تعارف عفيفة تذكرنا بجلسات عشاق العرب ومجانيهم.

- كونها صاحبة القرار الأول في كل ما يخص الأسرة أو العائلة من مشاريع وغيرها.

- في ظل تقسيم طبقي، تنتصر المرأة التارقية إلى الراحة والاطلاع، تاركة الأعمال للجواري والخدم.

- ولعها بالفنون على مختلف أشكالها، من منسوجات وصناعة الحلي إلى الموسيقى والعزف، وعليه، فإنها القائمة على حفظ التراث والعمل على استمرارته.^٦

ولقد جسدت المرأة ذلك واضحا من خلال سيطرتها التامة على الآلة الموسيقية، ومشاركتها الرجل في إنتاج عدد من القصائد أو المقطوعات الشعرية المرتبطة أساسا بحياتها الاجتماعية، وبعلاقتها الأسرية.

المusic الموسيقى التارقية:

في عمق الصحراء، وأمام موقد النار ووحشة الليل، يبدو العزف أفضل طارد للسأم والملل من نفس التارق المتعب طول نهاره، لهذا يستكين في الليل لرقة أنغام إمزاًدا خاصة، هذه الآلة الساحرة التي تدخل الرهبة والملائكة معا إلى النفوس بأنغامها العاطفية الحزينة، والجو الشاعري الذي تطبع به الزمان والمكان.

وإمزاًدا آلة تشبه الريابة العربية بوتر واحد، وهي أشبه بصحن خشبي، يغطى بجلد الماعز، ويثقب بعض الثقوب لإحداث الصوت، ويخرج من طرفيه عودان يربطهما حبل من شعر الخيل، أما الجزء الثاني فهو آلة الدعك، وهي عود خاص في شكل هلال موصول طرفاه بحبل

مجلة الكلم - العدد الأول

دقيق من شعر ذيل الحصان. وعليه فإن اسم الآلة هذه مشتق من إمزاد أي شعرة والجمع إمزادن.

ولا يعزف علهمَا غير النساء عادة، ويعد إجادتهن العزف من علامات حسن التربية ونبيل العنصر، ويصدر إمزاد أصواتاً رقيقة، وتزداد قيمتها بالغناء الأميل إلى الامتداد الصوتي في غالب الأحيان، ولعله دلالة على امتداد الصحراء وطول لياليها. أما حضور جلساتها فيحرص كل تارق عليه خصوصاً إذا كان من ذوي النهى والعقول، لأن إمزاداً رمز للنبل والشهامة، ما حدا بأحد الشعراء إلى القول:

اليوم الذي أموت فيه

لا بد أن تدفنوني في قطعة بيضاء

ناصعة من الكتان

مثل أوراق الكاغط

وتتصدقوا علي

بثلاث أغنيات من إمزاد

والفاتحة^٧.

إن قيمة إمزاد عند هذا الشاعر كبيرة كما نرى، إلى درجة أنه جعلها مع الفاتحة شيئاً عظيماً يتصدق به، وجعل الأغنيات ثلاثة بدل الواحدة فكأنما يرى أن طول الأنس بإمزاد هو عزاءه الأكبر.

مجلة الكلم - العدد الأول

غير أن إمزاًدا ليست الآلة الوحيدة عند نساء التوارق، فهن يُعرفن أيضاً بالتيندي، وهو طبل ضخم يصنع من إطار خشبي ويغطى بجلد الماعز الطري مشدوداً بقوة، تجلس حوله امرأتان تشداهه من الجانبين، ثم تأتي ثلاثة للضرب عليه، أما الرجال فينشدون ويفجعنون، كما أنه من الآلات التي تستقطب مجالس الشباب قصد التعارف.

وخلال جلسات التيندي في الأعراس تمارس لعبة تسمى (تندى أَنْ أَكْرِهِي)، وأَكْرِهِي هو خمار أسود يوضع على رأس فتاة جميلة تختار بعناية، ويحاول أحد الفرسان ممتطياً جمله اختطاف الخمار من على رأسها، وإذا نجح في ذلك يطارده جمع من الفرسان الشباب لاسترجاعه، ومن ظفر منهم بذلك يصبح فارس أحالمها.

وتنقل برنيزات هذا المشهد بقولها: "يطلب من رجل على جمله أن يسرق الخمار من رأس امرأة، وهذا أمر صعب جداً لأن النساء يخفن من الجمال، والجمال تخاف حشود النساء، والرجال يخشون السخرية في حال السقوط".⁸

أما (تيهيكالت) فهي آلة غنائية نسائية مثل التيندي بشكل دائري ومصنوعة من الخشب وجلد الماعز أيضاً، يرقص الرجال على إيقاعاتها، وتغنّيها العازبات أكثر من غيرهن لأن اسمها بمعنى العزوبيّة، كأنما يجعلن بالحياة الزوجية المقبلة السعيدة، أو تسمح لهن بالالتقاء بالشباب للتعرف قصد الزواج.

ويقول العارفون بالفنون التارقية أن جلسة الغناء لها طقوسها الخاصة تصل حد التقديس، كيف لا وقد كانت الوسيلة الوحيدة للترفيه في عمق الصحراء، وهي التي تجمع الأحبة والناس حولها للسمير والاستمتاع بالكلمة والنغم الجميل، بل هي التي تدفعهم إلى نبيل الأخلاق، وجمال العبر. وقد لاحظ أوتيليو قوديو أن "الحب هو الدافع الأكبر للشاعر والعازفات التارقيات، فالعواطف تثير شلالاً من القوافي، والأغاني، والرجلاء والحنين والحسنة القاسية، والعاطفة الجياشة والأحلام".⁹

بل يذهب قوديو إلى أبعد من ذلك، حين يصور سيطرة المرأة في مجتمع الهرار من خلال امتلاكها لسلاح الفن فيقول: "إن الشعر والإنشاد والعزف يامزدا من الأشياء الأكثر أهمية في المجتمع التاريقي، هذه الآلة الموسيقية هي سلاح المرأة التاريقي الأكثر خطرا، فبـه تستطيع فعل الكثير: تجعل الآخر يعـها، ويسمعـها ويبحثـ عنها ويـتـوـدـ إـلـهـا، وتـسـتـطـعـ خـاصـةـ أنـ تـعـاقـبـ وـتـجـعـلـ الرـجـلـ يـتوـسـلـ. وـعـلـىـ العـمـومـ، فـكـلـ زـوـجـ أوـ عـاشـقـ لاـ يـتـصـرـفـ بـكـرـامـةـ فـيـ فـعـلـ ماـ تـنـتـابـهـ الخـشـيـةـ مـنـ أـنـهـ عـنـدـمـاـ يـدـخـلـ خـيـمـتـاـ فـسـتـرـفـضـ مـنـهـ أـنـغـامـ إـمـزـادـ المـسـكـرـةـ. بلـ إنـ الـأـمـلـ فـيـ إـمـكـانـيـةـ إـسـمـاعـ الرـجـلـ نـغـمـ هـذـهـ آلـةـ السـحـرـيـةـ، يـثـيرـ فـيـهـ الشـجـاعـةـ وـيـجـعـلـهـ منـصـاعـاـ وـهـادـئـاـ فـيـ عـلـاقـتـهـ بـهـاـ. فـأـيـ تـأـيـرـ لـلـمـوسـيـقـىـ عـلـىـ وـجـانـ أـولـئـكـ الـذـينـ نـسـمـمـمـ" لـصـوـصـ الصـحـراءـ؟¹⁰"

الشعر في مجتمع إيموهاغ^{**}

صحيح أن "المؤثر الشعبي هو ابن البيئة، وهو انعكاس لتكوينها الطبيعية وظروفها الجغرافية، متأثرة كلها بحركة التاريخ، والأحداث التي تؤثر في هذه البيئة فتضيق إلـهـا، أو تحـورـ فيها، وـتـفـاعـلـ معـهاـ تـفـاعـلـ إـيجـابـياـ"¹¹، والـشـعـرـ أـحـدـ أـهـمـ عـنـاصـرـ المـؤـثرـ الشـعـبـيـ فـيـ مجـتمـعـ إـيمـوهـاغـ والمـجـتمـعـاتـ الشـبـيـةـ، ذـلـكـ أـنـهـ نـقـلـ لـماـ شـهـدـتـهـ الـحـيـاـةـ الـبـدـائـيـةـ مـنـ أـحـدـاثـ، وـتـسـجـيلـ لهاـ فـيـ عـبـارـاتـ دـقـيقـةـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ دـقـيقـةـ الـتـرـجـمـةـ مـنـ نـقـلـ قـيمـهاـ الـفـنـيـةـ. لـكـنـ تـدـاـولـهاـ شـفـهـيـاـ لـأـمـنـةـ طـوـيـلـةـ دـلـيـلـ عـلـىـ أـنـهـاـ ذـاتـ بـعـدـ حـكـميـ وـجمـالـيـ كـبـيرـ. فـالـإـنـسـانـ عـادـةـ لـاـ يـسـتـحـضـرـ مـنـ الـمـاضـيـ إـلـاـ مـاـ كـانـ لهـ قـيـمةـ، وـمـاـ كـانـ لـذـكـرـهـ أـثـرـ سـلـوـكـيـ أوـ اـجـتمـاعـيـ.

ولقد تمكـنـ بعضـ الـرـاحـالـةـ الـغـرـبـيـنـ مـنـ نـقـلـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـشـعـارـ الـتـيـ سـمعـوهاـ مـنـ أـهـالـيـ الـمـنـطـقـةـ، وـهـيـ مـرـتـبـطـةـ فـيـ غالـبـيـهـاـ بـالـحـيـاـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـقـضـيـاـيـاـ الـمـعيشـةـ، عـنـدـ الرـجـلـ كـمـاـ عـنـدـ الـمـرـأـةـ، فـقـدـ نـقـلـ عـنـ الشـاعـرـةـ التـارـيـقـيـ قـصـائـدـ لـمـنـاسـبـاتـ مـخـتـلـفـةـ، مـرـتـبـطـةـ بـنـشـاطـهـ الـيـوـمـيـ، وـوـظـيـفـتـهـ الـثـقـافـيـةـ؛ إـذـ بـهـ تـنـيـمـ طـفـلـهـ، وـتـؤـنـسـ زـوـجـهـ، وـبـهـ تـجـسـدـ مـآـثـرـ وـمـفـاخـرـ الـقـبـيلـةـ. وـهـوـ عـنـدـ الشـاعـرـ الرـجـلـ مـدـحـ وـافتـخارـ بالـرـجـولـةـ وـالـقـدرـةـ عـلـىـ مـمارـسـةـ الـأـعـمـالـ.

مجلة الكلم - العدد الأول

يذكر لوبيلاط أن عمّة (الطالب خامة) ظلت بعد خمسين سنة قادرة على ترديد قصيدة نظمتها أم خامة مدرس القرآن في تاظروك، تقول فيها ما ترجمته:

يا فاطمة

كتبت قصيدة حول خامة

ذلك الذي كان يعتني بأمه ويهتم بها

لقد ذكرها في كل بلاد يزورها

"أذكر زمناً قال لي فيه أحدهم: خامة إسلام"

أعطيته ثلاثة أنصبة من اللحم

قبيلة "إكاوارن" سمعوا بالأمر

لقد رغبت عيناي رؤية خامة

خامة الذي أرحب في رؤيته أينما يكون.

يقرأ جزءاً من القرآن، وأنا أسمعه

¹². ولست صماء.

في مثل هذا المقطع تبدو الروح الإسلامية بارزة عند الإنسان التارقي، فهو يحترم معلم القرآن، ويربط ذلك كله بعلاقة الحب والاحترام التي تجمعه بمن حوله. فقيمة البر التي عكسها المقطع دليل على غلبة السمة الروحية في نفسه.

مجلة الكلم - العدد الأول

ومن القصائد التي نقلها لوبيلاط أيضاً، قصيدة كتها (بديدي أق حاج أحمد) كتها في زوجة أبيه بمناسبة تفاصيها عن إعداد طعام لمجموعة شبان دعاهم إلى عمل جماعي:

أقول إن زوجة أبي ليست هنا

لقد أتينا بشباب ليعملوا

قلت لها: أسرعِي أعدى لنا شيئاً من الطعام..

أمسّت الخط وفت

کائنات علم تکن، اما لم

مع أنيرا تملك أطاقا كثيرة

لـ بـ ما تـ مـ الـ كـ قـ لـ بـ يـ اـ بـ دـ اـ

لهم تكلف نفسا حته، وئبة العما، الجمبا، الذي، يهدونه

وَلَا الَّذِينَ يَأْتُونَ لِرَفِيْبَتِهِ

^{١٣} هذا الكلام أقوله لشات أمين، "فاطمة ولت أخمد".

ولم يخل الشعر عند هؤلاء من المساجلات، مثلما نجده بين (شات أمين) و(بديدي) مثلا، ففاطمة ولت أحمد هذه قالت يوما: لقد ذهب (شاوي أخ براهيم أق حاج أحمد المدعو بديدي) وكل الرجال ذوي قيمة للبحث عن عمل باستثناء بديدي، لأنّ شيء بقاوه؟ فأجابها بديدي قائلا:

قلت لها: يا فاطمة لا عليك

مجلة الكلم - العدد الأول

لدي عمة عزيزة تدافع عن اسمها ناتا

شعرها مصفر بتسريحة جميلة

أمها ذكية وصادقة

إذا لم تكوني سعيدة فنادي على شاوي

ناتا ليس لها عيون إلا لأجل بيدي

إنها تعرف أنه ابن ذو قيمة

إذا رأته في الطريق قالت: يعجبني!

يمكنك الاعتماد علي يا ناتا سأمنحك خبزا من سكر

وأوراق الشاي القديمة هذه .. أه يا صديقتي

وكذلك أعواد الثقاب لإشعال النار.¹⁴

أما أوتيليو قوديو فيخبرنا بأنه خلال تواجده بين توارق طايتوك¹⁵ عام 1952 سجل مجموعة أشعار لشابة عاشقة يائسة، منها مقطع يقول:

لا أريد أن يبصر دمعي

ولا أن يعلم مبلغ حبي

رغم اضطرابي كغزال

ورغم أن امزاد ينزلق من يدي

مجلة الكلم - العدد الأول

انتظر، مثل صياد يطلب فريسته،

أن يجدني أخيرا.

لكن لماذا لا تأتي إلى خيمتي؟

فتجد لدفك

قلبا يحترق لأجلك

كما الرمال المعرضة للشمس.¹⁶

إن بساطة هذه الشعار وقرب موضوعاتها من الحياة اليومية يضفي عليها طابعا شعبيا خالصا، فهي من الكلام العفوي الذي يصور الأحساس دون تكلف أو زخرفة، غير أنه يعكس تنوع الصور الثقافية في البيئة التي أنتج فيها.

خاتمة:

إن العناصر الثقافية التي عرضناها في هذه الورقة ليست سوى جزء مما يزخر به الهقار من تراث غني، فهذا المتحف الطبيعي المفتوح على العالم يحوي نفائس تراثية مادية وغير مادية، تنتظر من الباحثين أن ينفضوا عنها الغبار الذي ما زال يعلوها، على الرغم من الجهد الذي تبذل في هذا السبيل، مستعينين بالدراسات التي تناولت المجتمع التارقي في بيئاته الأخرى (لبيبا ومالي والنiger).

ولا نستطيع إغفال حقيقة أن هذا التراث الثقافي قد خالط تراثاً عربياً بفعل التواصل الديني والتجاري بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، فأصبح الهقار نتيجة لذلك مركزاً لثقافة لافقة، وسياحة نشطة، ومحط أنظار الدارسين من قارات مختلفة.

وفي ظل النقص الفادح في كتابات الكتاب المحليين حول هذه المناطق الغنية بتراثها، تظل الكتابات الغربية في مختلف الميادين الثقافية مهمة وضرورية كمنطلق لدراسات يفترض أن تكون أكثر توسيعاً وتفسيراً وكشفاً، وبخاصة من الدارسين التوارق أنفسهم بحكم معرفتهم لخياباً ورموز وشفرات هذا المجتمع الذي لا يزال شبه غامض، على الرغم من القواسم الكثيرة المشتركة بين التوارق وجيراهم العرب.

مجلة الكلم - العدد الأول

هوماوش البحث:

*تازروك بلدة تقع في الجنوب الشرقي من مدينة تمزراست . تختزل جزءا هاما من تاريخ الهقار وتراثه.

1. التوارق لفظ يطلق على أمازيغ الصحراء الكبرى ، وينطقوها العرب عادة (طوارق) ويختلفون في سبب التسمية. غير أن أهالي الهقار يصررون على ضرورة بقاء اللفظة بالباء، لتدل على هذا الشعب الذي يتميز بسماته الثقافية الخاصة.

2. Odette BERNEZAT. Hommes des montagnes du Hoggar. Glenat. P 9
 3. Attilio Gaudio. Civilisations du Sahara. Marabout université.ed.GERARD &C . Belgique 1967. p 82
 4. Ibid. 82
 5. Ibid. 82
 6. رمضان حينوني. الكلمة والنغمة والحركة وسيادة المرأة التارقية. مجلة حوليات التراث. جامعة مستغانم. العدد 11..2011..
 7. عبد السلام بوشارب . الهقار أمجاد وأنجاد. المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار- روبية . 1995
 8. Odette Bernezat. Hommes des montagnes du Hoggar.. pp. – 211-212.
 9. Attilio Gaudio. Civilisations du Sahara. Marabout universite .1967 . Belgique ; 90
 10. Ibid. 84
- **اسم يطلق على قبائل التوارق الكبيرة منها والصغيرة .
11. فاروق خورشيد. قضايا شعبية. مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة. ط.1-2003. ص 97
 12. Louis PILATE. Histoire de TAZROUK. Centre de documentation saharienne. Ghardaia. p 65
 13. Ibid. 66
 14. Ibid. 69
 15. قبيلة تارقية بدوية تشكل في الجزائر إحدى المجموعات النبيلة في عشيرة (كل أهقار).
 16. Attilio Gaudio. Civilisations du Sahara. P90